﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ علَّةِ التَّحذيرِ مِنْ إشعارِ القومِ بأمرِ أهلِ الكهفِ

لمّا ذكرت الآيةُ السابقة نهيَ الفتيةِ مبعوثَهم إلى المدينةِ لإحضارِ الطَّعامِ عنِ الإشعارِ بهم وقالوا: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ جاءت هذه الآية؛ لبيان علة التحذير من شعور القوم بهم؛ فقال تعالى على لسانهم؛ فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ الآيةَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَظْهَرُوا۟﴾: (ظهر) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[2]، يقالُ: ظَهَرَ عليه: غلبَهُ، ويقالُ: ظاهرتُهُ: عاونتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ [الممتحنة: 9][3]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الظَّهْرِ الَّذي هو الجارحةُ؛ لأنَّ المعاونَ يساعدُ صاحبَهُ بجوارحِه، وأقواها ظَهْرُهُ، ثمَّ جُعِلَ عبارةً عن كلِّ معاونةٍ وإنْ كانَتْ بغيرِ الظَّهْرِ حتَّى باللِّسانِ[4]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: 26]، أي: لا يُطلِعُ عليه[5]، والظُّهورُ: ضدُّ الخفاءِ، قالَ تعالى: ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 48]، أي: بدا ما وعدَ اللهُ بهِ رسولَهُ والمؤمنينَ مِنَ النَّصْرِ، وفشا دينُ الإسلامِ، وأصلُ ذلكَ مِنْ حُصولِ الشَّيءِ على وجهِ الأرضِ، ثمَّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ للبصرِ والبصيرةِ[6]، ومعنى ﴿إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾: يَغلِبوكم[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 38، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 327، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(3) الراغب، المفردات: (ظهر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(5) الراغب، المفردات: (ظهر).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: (ظهر).

2) ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: (رجم) "أصلٌ واحدٌ يرجعُ إلى وجهٍ واحدٍ؛ وهي الحجارةُ"[1]، مِنْ ذلكَ الرِّجامُ: الحجارةُ، والرَّجْمُ: الرَّميُ بالرِّجامِ، يقالُ: رُجِمَ فهو مرجومٌ، قالَ تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء: 116]، أي: المقتولينَ أقبحَ قِتْلةٍ، ويُستعارُ الرَّجمُ للرَّميِ بالظَّنِّ والتَّوهُّمِ، وللشَّتمِ والطَّردِ، نحوُ قولِهِ تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: 22]، وقولِهِ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]، أي: لَأَقولَنَّ فيكَ ما تكرهُ، والشَّيطانُ الرَّجيمُ: المطرودُ عنِ الخيراتِ، وعن منازلِ الملإِ الأعلى[2]، ومعنى: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: يرموكم بالحجارة، فيقتلوكم.

3) ﴿مِلَّتِهِمْ﴾: المِلَّةُ: الشَّريعةُ؛ كمِلَّةِ الإسلامِ والنَّصرانيَّةِ واليهوديَّةِ، وقيلَ: هي مُعظَمُ الدِّينِ[3]، وقيلَ: هي كالدِّينِ، وهو اسمٌ لِما شرعَ اللّهُ لعبادِهِ على لسانِ الأنبياءِ؛ ليتوصَّلوا بهِ إلى جوارِ اللّهِ[4]، وملحظُ اشتقاقِها من شريعة تمُدُّ ويزَوّدُ بها لإصلاح حال الخلق ومآلهم دائمًا[5].

4) ﴿تُفْلِحُوٓاْ﴾: الفَلاحُ: الفَوْزُ والظَّفَرُ بالبُغْيةِ[6]؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: 5]، وأصلُهُ مِنْ فَلَحْتُ الحديدَ: شَقَقْتُهُ، ومنهُ الفَلّاحُ؛ لأنَّهُ يَشُقُّ الأرضَ[7]، والفَلاحُ نوعانِ: دُنيويٌّ وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفَرُ بالسَّعاداتِ الَّتي تَطيبُ بها الحياةُ، وهي البقاءُ والغِنى والعِزُّ، والأُخرويُّ أربعةُ أشياءَ: بقاءٌ بلا فَناءٍ، وغِنًى بلا فقرٍ، وعِزٌّ بلا ذُلٍّ، وعلمٌ بلا جهلٍ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يبالغُ الفتيةُ في التَّحذيرِ مِنْ عاقبةِ الإعلامِ بأمرِهم، ويقولُ بعضُهم لبعضٍ: إنَّ قومَكم إنْ يَطَّلِعوا على مكانِكم ويَغلِبوكم يُعذِّبوكم بأنواعِ العذابِ الفظيعةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجم).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رجم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (ملل).
(4) الراغب، المفردات: (ملل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملل).
(6) الجوهري، الصحاح: (فلح).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (فلح).
(8) الراغب، المفردات: (فلح).

إلى أنْ يُعيدوكُم في دينِهم الَّذي هُم عليهِ أو يقتلوكم شرَّ قِتْلةٍ رميًا بالحجارةِ، وإنْ رجعتُم إلى دينِهم فلا فَوْزَ ولا ظَفَرَ لكُم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[1].

وجوبُ أخذِ المؤمنِ الحِذْرَ مِنْ وقوعِهِ بأيدي الكفرةِ

وترشدُ الآية إلى الحث على التحرُّز، والاستخفاء، والبعدِ عن مواقع الفتن في الدّين، واستعمالِ الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدّين، وإلى شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدّين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم وتركهم أوطانهم في الله، وإلى ذكر ما اشتمل عليه الشرُّ من المضارِّ والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه، وأنَّ هذه الطريقةَ هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الجملةُ تعليلٌ لِما قبلَها

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ عمّا قبلَهُ – وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ – ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّ بينَ الجملتينِ شِبْهَ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ بيانٌ وتعليلٌ لِما قبلَها، بيانُ ذلكَ: أنَّ الفتيةَ لمّا نهَوا المبعوثَ إلى المدينةِ عنِ الإشعارِ بأمرِهم أتَوْا بهذهِ الجملةِ على سبيلِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لبيانِ علَّةِ النَّهيِ عنِ الإشعارِ[3]، كأنَّهُ قيلَ: (ولا يُشعِرَنَّ بكُم أحدًا؛ لأنَّهم إنْ يَظْهَروا عليكُم...)[4].

سرُّ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

مقامُ أخذِ الحيطةِ والحذرِ يستدعي مزيدَ التأكيدِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بـ(إنَّ)؛ لأنَّهُ تعليلٌ لِما قبلَهُ، والتَّعليلُ كثيرًا ما يُؤتى في صدرِهِ بـ(إنَّ) الدالَّةِ عليهِ[5]،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 145 - 146، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 132.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 473.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 229.
(5) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 45.

ولأنَّ مقامَ أخذِ الحيطةِ والحذرِ يستدعي مزيدَ التَّأكيدِ والتَّشديدِ على عدمِ اطِّلاعِ الكفرةِ على شأنِ الفتيةِ؛ لِما يترتَّبُ على ذلكَ مِنَ المفاسدِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، والفتيةُ مُتيقِّنونَ مِنْ حصولِ هذهِ المفاسدِ في حالِ حصولِ الاطِّلاعِ، ولذلكَ أكَّدوا كلامَهم؛ لأنَّ مَنْ قَوِيَ اعتقادُ المعنى في نفسِهِ أخرجَ الكلامَ المُعبِّرَ عنهُ في صورةِ التَّأكيدِ.

دلالة التعبير بالإضمار في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾:

مرجعُ الضَّميرِ فيه أقوالٌ متقاربةٌ مِنْ حيثُ المآلُ

آثر القرآن الكريمُ التعبير بالإضمار في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ للاختلاف في مرجعِ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهُمْ﴾ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ على أقوالٍ متقاربةٍ:

منها: أنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى الأهلِ المُقدَّرِ في ﴿أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾[1].

ومنها: أنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى ما دلَّ عليهِ المعنى مِنْ كفّارِ تلكَ المدينةِ[2].

ومنها: أنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى ﴿أَحَدًا﴾ في قولِهِ: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾؛ لأنَّهُ في معنى الجمعِ لوقوعِهِ في سياقِ النَّهيِ[3].

سرُّ التعبير بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

مراعاة مقام الفتية من الحذر والاحتياط

آثر السياقُ التعبير بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قوله: ﴿إِن يَظْهَرُواْ﴾ مع أنهما للشَّرطِ في الاستقبالِ، لكنَّ الأصلَ في (إنْ) أنْ تُستعملَ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، وأصلَ (إذا) أنْ تُستعملَ في مقامِ الجزمِ بوقوعِهِ[4]، ومقامُ الفتيةِ هنا مقامُ شدَّةِ حذرٍ واحتياطٍ؛ لئلا يَظهَرَ القومُ عليهِم، وقد بالغوا في التَّحذيرِ مِنْ ذلكَ، فكانَ ظُهورِ القومِ عليهِم بعدَ كلِّ هذهِ التَّدابيرِ في حكمِ الأمرِ النّادرِ المُستبعَدِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 711، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 506، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 157.
(3) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.
(4) التفتازاني، المختصر، ص: 270.

الوقوعِ، فاستعمَلوا حرفَ الشَّرطِ ﴿إن﴾ وقالوا: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾:

مراعاة القاعدة النحوية

تشتركُ (إنْ) و(إذا) في أنَّهما للشَّرطِ في الاستقبالِ، ولذلكَ تكونُ جملتا الشَّرطِ والجزاءِ معَهما فعليَّتينِ استقباليَّتينِ، ولا يُخالَفُ ذلكَ إلّا لنكتةٍ[1]، وقد جاءَتا على الأصلِ هنا، فقالَ الفتيةُ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾.

دلالة تعديةِ الفعلِ ﴿يَظْهَرُواْ﴾ بـ ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

تضمينُ فعلِ الظُّهورِ معنى الغلَبةِ

عُدّيَ الفعل ﴿يَظْهَرُواْ﴾ بـ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾؛ لتضمينه معنى الغلبة؛ لأن الظُّهورَ في الأصلِ: البُروزُ دونَ ساترٍ، ويُطلَقُ على الظَّفرِ بالشَّيءِ، وعلى الغلَبةِ على الغيرِ، وهو المرادُ هنا في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾[2]، ولذلكَ عُدّيَ بـ ﴿عَلَيْكُمْ﴾.

سرُّ ذكرِ الرَّجْمِ دونَ غيرِهِ مِنَ العقوباتِ:

تخصيصُ الرَّجمِ بالذِّكرِ لكونِهِ أخبثَ أنواعِ القتلِ

ذُكِرَ الرَّجْمُ في قولِ الفتيةِ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ دونَ غيرِهِ مِنَ العقوباتِ الَّتي يحصلُ بها القتلُ؛ لأنَّهُ أخبثُ أنواعِ القتلِ[3]؛ لِما فيهِ مِنَ الإذلالِ والإهانةِ والتَّعذيبِ[4]، ولأنَّهُ كانَ عادةَ قومِهم في ذلكَ الزَّمانِ[5]، والفتيةُ عارفونَ بهِ، فلذلكَ خصّوهُ بالذِّكرِ.

علةُ تقديم الرجم على الإعادة:

مدح الله الفتيةَ في ثبوتهم على الدين الصحيح

قدَّم القرآن الكريم الرجم على الإعادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 276.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.

(3) الواحدي، البسيط: 13/ 569، والزمخشري، الكشاف: 2/ 711، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21، 446.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.

(5) الزمخشري، الكشاف: 2/ 711، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 327.

﴿يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾؛ للدلالة على مدح الله تعالى للفتية من ثبوتهم على الدين الصحيح وعدم التفريط فيه مهما كلفهم ولو بقتلهم بالحجارة.

سر التعبير بـ ﴿أَوْ﴾ في ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾:

(أَوْ) بمعنى (إلّا)، أو لمنعِ الخُلوِّ

آثر القرآن الكريم التعبير بـ ﴿أَوْ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾؛ لأنها تحتمل معنيين:

أحدُهما: أنْ تكونَ بمعنى (إلّا)، والمعنى: إنْ يَغلِبوكم يَرجُموكم، ولن يُنجيَكم مِنَ الرَّجمِ إلّا أنْ تَعودوا طَوْعًا أو كَرْهًا إلى الوثنيَّةِ الَّتي فَرَرْتُم منها، وفي هذهِ الحالِ تكونُ الخسارةُ الدّائمةُ إلى يومِ القيامةِ[1].

والثّاني: أنْ تكونَ لمنعِ الخُلوِّ، أي: لا يخلو أمرُهم عن أحدِ الأمرينِ؛ وهما: إرجاعُكم إلى دينِهم، أو قتلُكم[2].

دلالة التعبير بـ(العَوْدِ) في قولِهِ: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾:

احتمالُ بقاءِ العَوْدِ على ظاهرِهِ، واحتمالُ كونِهِ بمعنى الصَّيرورةِ

عَبَّر القرآن الكريم بالعَوْدِ دون غيره في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾؛ لاحتماله وجهينِ مِنَ المعنى:

أحدُهما: أنْ يكونَ بمعنى الصَّيرورةِ، والمعنى: إنْ يَظْهَروا عليكُم يَرْجُموكُم أو يُدخِلوكم في مِلَّتِهم بالإكراهِ العنيفِ، ويُصيِّروكم إليها، والعَوْدُ في معنى الصَّيرورةِ أكثرُ شيءٍ في كلامِهم، يقولونَ: ما عُدتُ أفعلُ كذا، يريدونَ ابتداءَ الفعلِ[3]، وكونُ العَوْدِ بمعنى الصَّيرورةِ: إمّا على سبيلِ الحقيقةِ كما هو الظّاهرُ، وإمّا على سبيلِ المجازِ[4].

والثّاني: أنْ يكونَ على ظاهرِهِ، ويُرادَ: أنَّ الفتيةَ كانوا أوَّلًا

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 145، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4510.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 287.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/ 711، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 157.
(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 46.

على دينِ قومِهم ثمَّ آمَنوا[1]، ويخافونَ أنْ يُرجِعَهم قومُهم إلى ما كانوا عليهِ.

نكتةُ التعبير بالبناء للمفعول في قولِهِ: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾:

جاء التعبير القرآني ببناء الفعل ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ للمفعول؛ للدلالة على إكراه قومهم لهم إلى العودة في دينهم، وفيه إشارة إلى تحملهم للأذى المتوقع صدوره منهم لكي يعودوا إلى مِلَّتِهم.

سرُّ التعبير بالظرفية في قوله: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾:

المبالغةُ في إظهارِ كراهةِ الفتيةِ الرُّجوعَ إلى مِلَّةِ قومِهم

أوثرَ التَّعبيرُ بـ﴿فِي﴾ على التَّعبيرِ بـ(إلى)، فقيلَ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾، ولم يُقَلْ: (إلى مِلَّتِهم)؛ للدَّلالةِ على الاستقرارِ في الكفرِ الَّذي هو أشدُّ شيءٍ عندَهم كراهةً[2]، وفي ذلكَ مبالغةٌ في إظهارِ الكراهةِ[3]، ومعنى الظَّرفيَّةِ الَّذي تدلُّ عليهِ كلمةُ ﴿فِي﴾ يوحي بأنَّ الكفرةَ يَودّونَ أنْ يَغمِسوا الفتيةَ في الكفرِ غَمسًا، بحيثُ يشتملُ عليهِم الكفرُ اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿مِلَّتِهِمْ﴾:

إظهارُ كمالِ التَّبرُّؤِ مِنْ مِلَّةِ قومِهم

تدلُّ إضافةُ المِلَّةِ إلى ضميرِ القومِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ على كمالِ تبرُّؤِ الفتيةِ مِنْ مِلَّةِ قومِهم؛ لأنَّ المعنى: يُرجِعوكم إلى المِلَّةِ الَّتي هي مِنْ خصائصِهم[4]، ولا شأنَ لكُم بها وقد أكرمَكم اللهُ بالإيمانِ.

وجهُ تكرارِ ضميرِ الخِطابِ في المواضعِ الأربعةِ:

حملُ المبعوثِ على الاستخفاءِ، وحثُّ الباقينَ على الاهتمامِ بالتَّوصيةِ

يُلحَظُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، وقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ - أنَّ الفتيةَ جاؤوا بضميرِ الخِطابِ في أربعةِ مواضعَ؛ للمبالغةِ في حَملِ المبعوثِ على

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214، وإسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 229.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 46.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 287.

الاستخفاءِ، وحثٌّ الباقينَ على الاهتمامِ بالتَّوصيةِ؛ فإنَّ إخلاصَ النُّصحِ أدخلُ في القَبولِ، واهتمامَ الإنسانِ بشأنِ نفسِهِ أكثرُ[1].

دلالة ترتيب نفي الفلاح على الإكراهِ على الرُّجوعِ إلى الكفرِ:

الإكـــراهُ على الكفرِ قد يكونُ سببًا لاستدراجِ الشَّيطانِ المُكرَهَ إلى استحسانِهِ

معنى قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾: إنْ دخلتُم في ملَّتِهم حقيقةً ولو بالكُرْهِ والإلجاءِ لن تَفوزوا بخيرٍ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، ووجهُ الارتباطِ بينَهُ وبينَ ما قبلَهُ: أنَّ الإكراهَ على الكفرِ قد يكونُ سببًا لاستدراجِ الشَّيطانِ المُكرَهَ إلى استحسانِ الكفرِ والاستمرارِ عليهِ، فلا يَرِدُ: أنَّ إظهارَ الكفرِ بالإكراهِ معَ إبطانِ الإيمانِ معفوٌّ عنهُ في جميعِ الأزمانِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ﴾:

استمرارُ انتفاءِ الـــفـــلاحِ في المستقبلِ على تقديرِ الرُّجوعِ إلى الكفرِ

لمّا حذَّرَ الفتيةُ مِنْ ظُهورِ قومِهم عليهم، وبيَّنوا أنَّ ما يترتَّبُ على هذا الظُّهورِ إنْ حصلَ هو الرَّجْمُ أو الرُّجوعِ بالإكراهِ إلى الكفرِ قبَّحوا أمرَ الرُّجوعِ إلى الكفرِ ببيانِ أنَّهُ يُفضي إلى خُسْرانٍ مُستمرٍّ لا انقطاعَ لهُ، فعبَّروا بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ الدالَّةِ على ذلكَ، فقالوا: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾، فضلًا عمّا في التَّعبيرِ بهِ مِنْ مناسبةِ ما سبقَ مِنَ الأفعالِ المضارعةِ.

دلالةُ حرفِ الجوابِ ﴿إِذًا﴾:

تأكيدُ التَّحذيرِ مِنَ الإرجاعِ إلى ملَّتِهم

يدلُّ حرفُ الجوابِ ﴿إِذًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ على شرطٍ محذوفٍ تقديرُهُ: ولن تُفلِحوا إنْ رجعتُم إلى ملَّتِهم أبدًا[3]، وفي هذهِ الجزائيَّةِ تأكيدٌ للتَّحذيرِ مِنَ الإرجاعِ إلى ملَّتِهم؛ بأنَّها يترتَّبُ عليها انتفاءُ فلاحِهم في المستقبلِ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 220.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 85، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 220.
(3) الواحدي، البسيط: 13/ 570، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 446.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 287.

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿أَبَدًا﴾:

تأكيدُ ما دلَّ عليهِ حرفُ النَّفيِ

لمّا نفى الفتيةُ الفلاحَ في المستقبلِ على تقديرِ الرُّجوعِ إلى الكفرِ، وقالوا: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ - أتَوْا بالظَّرفِ ﴿أَبَدًا﴾؛ تأكيدًا لما دلَّ عليهِ النَّفيُ بـ ﴿وَلَن﴾ مِنَ التَّأبيدِ أو ما يُقاربُهُ[1]، أي: لن تُفلِحوا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[2]، وفيهِ مِنَ التَّشديدِ في التَّحذيرِ ما لا يخفى[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَوْدُ والرُّجوعُ:

العَوْدُ رجوعٌ إلى الشَّيءِ بعدَ انصرافٍ، والرُّجوعُ عَوْدٌ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ

قيلَ في التَّفرقةِ بينَ العَوْدِ والرُّجوعِ: العَوْدُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ: إمّا انصرافًا بالذّاتِ، أو بالقولِ والعزيمةِ، قالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: 107][4]، والرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ، أو تقديرُ البَدْءِ مكانًا كانَ أو فعلًا[5].

وحاصلُ هذا القولِ: أنَّ الرُّجوعَ يُلحَظُ فيهِ العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ دونَ التفاتٍ للانصرافِ عنهُ أوَّلًا، والعَوْدَ يُلحَظُ فيهِ الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ، والفرقُ - كما يظهرُ - دقيقٌ جدًّا.

يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في العَوْدِ ملاحظةَ الاعتيادِ على الشَّيءِ ونُزوعِ النَّفسِ إليهِ، وكأنَّ العائدَ يرجعُ بعدَ الانصرافِ إلى ما تألفُهُ نفسُهُ وتَنزِعُ إليهِ.

وقيلَ: الفرقُ بينَ الرُّجوعِ والعَوْدِ: أنَّ الرُّجوعَ: فعلُ الشَّيءِ ثانيةً، ومصيرُهُ إلى حالٍ كانَ عليها، والعَوْدُ: يُستعمَلُ في هذا المعنى على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 287.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 146.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214.
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عود).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (رجع).

الحقيقةِ، ويُستعمَلُ في الابتداءِ مجازًا، يقالُ: قد عادَ إليَّ مِنْ فلانٍ مكروهٌ، وإنْ لم يكنْ قد سبقَهُ مكروهٌ قبلَ ذلكَ، وتأويلُهُ: أنَّهُ لَحِقَني منهُ مكروهٌ[1]؛ فيكونُ العَوْدُ أعمَّ مِنَ الرُّجوعِ.

المِلَّةُ والدّينُ:

المِلَّةُ لا تُضافُ في الغالبِ إلَّا إلى نبيٍّ، ولا تُستعمَلُ إلَّا في جملةِ الشَّرائعِ

فُرِّقَ بينَ المِلَّةِ والدّينِ مِنْ وجهينِ:

أحدُهما: أنَّ المِلَّةَ لا تُضافُ إلَّا إلى النَّبيِّ الَّذي تُسنَدُ إليهِ؛ نحوُ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [آل عمران: 95]، ولا تكادُ توجَدُ مُضافةً إلى اللهِ، ولا إلى آحادِ أُمَّةِ النَّبيِّ، لا يقالُ: (مِلَّةُ اللهِ)، ولا يقالُ: (مِلَّتي ومِلَّةُ زيدٍ)؛ كما يقالُ: (دينُ اللهِ)، و(دينُ زيدٍ)[2].

وعدمُ إضافتِها لغيرِ النَّبيِّ أمرٌ أغلبيٌّ؛ إذ قد تُضافُ إلى آحادِ النّاسِ؛ كما في الآيةِ الَّتي نحنُ بصَدَدِها؛ إذ قالَ الفتيةُ: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾، وكما في قولِهِ تعالى: ﴿۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: 88].

والثّاني: أنَّ المِلَّةَ لا تُستعمَلُ إلَّا في جُملةِ الشَّرائعِ دونَ آحادِها، فلا يقالُ: (الصَّلاةُ مِلَّةُ اللهِ)[3].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 250، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 157.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ملل).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ملل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»